

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية الآداب
قسم الفلسفة

الحضور الهيرقليطي في الفلسفة الألمانية الحديثة

رسالة قَدِّمها
عادل عبد الله جويمه

إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية
وهي جزء من متطلبات نيل درجة ماجستير آداب في الفلسفة

بإشراف

الأستاذ

حسنون فندي السراي

٢٠١١م

١٤٣٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الملخص العربي للرسالة

ابتداءً يمكن القول أن متن الرسالة قد تم إنشاؤه بعناية كبيرة لكي يكون موافقاً ومستغرقاً لعنوانها، ومعنى هذا أن بحثنا يفترض توافقاً منهجياً بين عنوانها وممتنها، من حيث تسويغنا لضرورات اقتصارها على بحث فلسفتي كل من هيجل ونييتشه كممثلين للفلسفة الألمانية الحديثة حصراً، وهو الأمر الذي تم لنا بيانه من خلال ملاحظتين تضمنتهما مقدمة الرسالة.

أما عن مضمون هذه الرسالة وغايتها ومنهجها وجديدها المفترض، فيمكن إجمال هذه المطالب كلها عبر الإيجاز الآتي:

- في بحوث الفلسفة، وفي أصول التأليف فيها، لا يمكن الركون إلى ما هو "شائع من القول" في مدوناتنا، سواء أعلق الأمر بشخصية فلسفية ما، أو تعلق الأمر نفسه، بفكرة قالتها أو قيلت عنها. إذ لا بد من تمحيص دقيق، وتحقيق عن صحة هذا الذي "يقال" ويجري تداوله، انطلاقاً من كون الفلسفة علماً "دقيقاً" غايته البحث عن الحقيقة، أيّاً كان نوعها. ولعلنا نجد في "هيرقليطس" الإنسان والمفكر، أنموذجاً نادراً لفكرة توطن "الشائع من القول" في بحوث الفلسفة.

فثمة أولاً كلام شائع في التدوين الفلسفي لسيرته الذاتية، ولشخصيته الفريدة، ولنوع علاقته بأناس عصره، مثلما هناك كلام شائع عن "غموضه" وظلاميته، وعن "قدره" الفلسفي غير المكافئ لحقيقته في عالم الفكر.

ثم هناك من بعد، ومن جانب آخر كلام شائع، عن صلته الفلسفية، ونوع تأثير مبادئه في عدد من الفلاسفة الألمان المحدثين، تحديداً: هيجل ونييتشه.

ومن هنا، كانت إحدى مهام بحثنا، وضروراته، هي ردّ الاعتبار لمكانة هذا المفكر الكبير، والانتصاف له إنساناً وفيلسوفاً من جهة، والوقوف على حقيقة الصلة بين مبادئه الفلسفية الكبرى، ومبادئ كل من هيجل ونييتشه، ممثلي الفلسفة الألمانية الحديثة في بحثنا من جهة أخرى.

فبقدر تعلق الأمر بالضرورة الأولى يقتضي توجيه مسار بحثنا، لتقصي مصادر التشويه المدونة، تلك التي ألحقت كل ذلك الأذى الفكري والنفسي به أولاً، وبيان تهافت فرضيات النيل منه، من بعد، سبيلاً لإظهار الوجه المضيء لذلك المفكر الذي تواطأ الشائع من بحوث الفلسفة على قرنه بالظلام.

وهكذا بحثنا في الفصل الأول، وهو المخصص لدراسة "هيرقليطس" أنساناً وفيلسوفاً، هذه المسألة كلها.

ماهية موضوعنا إذن، مركبة، مزدوجة أفصحت عن طبيعتها الضرورتان المذكورتان آنفاً.

أما نطاقه، ففضلاً عن هذه المقدمة، ثمة فصول ثلاثة، يتعلق كل منها على نحو عام بدراسة هؤلاء الفلاسفة الثلاثة "هيرقليطس، وهيجل ونييتشه" من حيث صلة الأخيرين بالأول، على الصعيدين، الإنساني والفلسفي معاً.

إما منهج بحثنا فهو تحليلي ومقارن في الوقت نفسه، إذ يشمل الوصف الأول تحليل المفاهيم والمبادئ العاملة لكل من الفلاسفة الثلاثة، والوقوف على معانيها الخفية وحقائقها، في حين يشمل الوصف الثاني مقارنة كل مبدأ لدى هيجل، ونييتشه، بالمبدأ الشبيه له لدى هيرقليطس.

وقد قسمنا كل فصل من هذه الفصول الثلاثة، إلى عدة مباحث، وظّفنا كل واحد منها لغرض محدد، يوضحه عنوانه ومضمونه أيضاً.

وهكذا بحثنا في الفصل الأول، المخصص لدراسة شخصية هيرقليطس، حقيقة ما يقال عن كونه متعجباً، ومتكبراً، وكارها للبشر، ومتحدثاً

إليهم بأسلوب غامض معمى، انطلاقاً من نفسه المريضة وجنونه المفترض!

ثم عرضنا في مبحث آخر، لمسألة غموض أسلوبه، مبينين ما قيل في أسبابها، وما سوغ لكثير من الباحثين، مهر شذراته بهذه الصفة، بوصفها علامة فارقة لصناعة الفكر لديه.

ولما كان موضوع بحثنا الأساسي، هو الكشف عن صلة الرحم الفكري، بين هيرقليطس، وكل من هيجل ونييتشه، عرضنا في مبحث آخر، المبادئ الكبرى لفلسفة هيرقليطس متوخين بعرضها إنشاء القاعدة الفكرية التي سيجري اتخاذها من بعد، موضعاً للمقارنة، وأرضية يتم التعرف من خلالها، على مدى تطابق مضمونها، مع الأفكار التي استنبتها، كل من هيجل ونييتشه في تربتها الخصيبة.

٢- كان دفاعنا عن شخصية هيرقليطس ونفي ما علق بها من تشويه، من جانب، سبباً لإثبات نزعة الإنسانية، من جانب آخر، مساقاً بغايتين، كناً نبّيت لهما، أولاهما: إثبات الربط المحكم، حدّ التماهي، بين النزعة الإنسانية في شخصيته، من جهة و الحقيقة الكبرى التي تسنى له وحده الاطلاع عليها، ثم سعى من بعد ذلك، انطلاقاً من مسؤوليته بوصفه فيلسوفاً، وملكا وكاهناً، وبكل وسائله العاملة، على إشراك الناس معه، في التطلع إلى بهاء تلك الحقيقة التي رآها وحيداً هناك.

ومفاد هذه الحقيقة باختصار مطلق، "إن الكل واحد". ومن هنا، كان لفلسفته مهمة تنويرية، هي استعادة وحدة الكل، وحدة اللوغوس والإنسان والطبيعة، عن طريق ردّ الأخيرين إلى الأول، بوصفه الأصل الوحيد الذي صدرا عنه.

أما الغاية الأخرى، فهي إثبات أن نوع المهمة هذه نفسها، هي ما يؤلف الفكرة النهائية، والغاية القصوى لمذهب هيجل كله.

إذ ليست "المثالية المطلقة" وهي المذهب النوعي والتسمية الرسمية لمذهب هيجل، سوى نظريته في إثبات وحدة الكل، وحدة الله، والإنسان، والطبيعة، ومن هنا، كان بحث المهمة الإنسانية لهيجل، مهمة ردّ الواقع

الإنساني إلى الواقعي الإلهي الذي انفصل الأول عنه، سبيلاً لاستعادة "الكل"، هو الموضوع المؤلف للمبحث الأول من فصلنا الثاني.

المبحثان الثاني والثالث، من الفصل نفسه، كانا مخصصين لعرض المبادئ الكبرى المؤلفة لمذهب هيغل، من جهة، وبيان نوع صلتها بمبادئ فلسفة هيرقليطس، من جهة أخرى.

وهذه المبادئ هي "اللوغوس، والجدل، ووحدة الكل، والضرورة، ووحدة الأضداد"، ولما كانت مقارنة "مطلق" هيغل بـ "لوغوس" هيرقليطس تتطلب قدراً واسعاً من الإيضاح، استناداً إلى كون المبدأين "اللوغوس والمطلق" هما الأصل في كل من مبدأي هيغل وهيرقليطس، فقد جرى إفراد المبحث الثاني لعرض صلة هذين المبدأين وأهميتهما حسب.

في المبحث الثالث، وهو المخصص – كما اشرنا – لمبحث المبادئ الكبرى المشتركة لكل من فلسفتي هيرقليطس وهيغل، عرضنا أولاً، مبدأ "الجدل" فكشفنا عن أهميته وفاعليته القصوى بوصفه المنهج الوحيد الذي توكل عليه كل من هيرقليطس، وهيغل، لإنجاز مهام فلسفته.

أما عن مبدأي الضرورة ووحدة الأضداد، وانطلاقاً من كونهما مقولتين مترابطتين مع مقولتي الوجود والعدم، سواء في فلسفة هيرقليطس، أو هيغل، فقد كشفنا من خلال "منطق هيغل" عن الأهمية الفريدة للمثلث الجدلي "الأول" الذي يجمع تلك المقولات الثلاث " الوجود، والعدم، والضرورة" إلى بعضها. ولما كان هذا المثلث نفسه، بكل مفاهيمه وآليات عمله النادرة، هو المثلث الجدلي نفسه في فلسفة هيرقليطس، أصبح القول بان أصل هذه المقولات الثلاث وبكل خصوصيات عملها في منطق هيغل، هو أصل هيرقليطي، لا شك فيه.

٣- في الفصل الثالث، وهو الفصل المخصص لمبحث العلاقة الفكرية والإنسانية، بين كل من هيرقليطس ونيتشه، كانت خطة بحثنا تسعى إلى عرض هذه العلاقة، من خلال موضوعات مشتركة بين الفيلسوفين، تختلف عن تلك التي عرضناها في بحثنا لعلاقة هيغل بهيرقليطس.

ولعلنا نكون قد قصدنا بهذا الإجراء، لا إضفاء صفة التنوع على موضوعات رسالتنا حسب، بل حرصنا على الكشف عن "عبقرية" هيرقليطس أيضاً، من حيث قدرتها على تشكيل الأصل الحقيقي، لأثنين من أكابر فلاسفة العالم الحديث، على الرغم من كون أحدهما "نيتشه" يمثل موضع الرفض، والنقض المطلق لجميع مبادئ فلسفة الآخر ومفاهيمها، أعني "هيجل".

انطلاقاً من خطة البحث هذه، عرضنا في المبحث الأول، تحت تسمية "العودة إلى الإغريق" موضوعين:

يوضح الأول منهما، الغاية من رجوع نيتشه إلى الإغريق، وهي ما تمثل بنقد الحداثة، عن طريق إصلاح العقلانية بإدخال عنصر الجمال في طريقة رؤيتها إلى الوجود، وهو الأمر الذي كانت تتسم به نظرة الإغريق إلى الوجود. غير أنها ليست عودة إلى طاليس أو أنكسمنديس، أو بارمنيدس أو انكساغوراس، مثلما ليست هي عودة لسقراط و أفلاطون و أرسطو، أولئك الذين كانوا جميعاً موضع النقد النيتشوي – بهذا القدر أو ذاك – إنما هي عودة إلى التوازن الأخاذ بين الإلهين، أبولو وديونيزوس أولاً، مثلما هي عودة وعلى نحو كلي إلى فلسفة هيرقليطس، فلسفة الصيرورة البريئة، ولعب الوجود وإرادة الصراع.

أما الموضوع الثاني، فهو، الكشف عن الموقف الإنساني والفكري، الذي يعمد بالاستناد إليه كل من هيرقليطس ونيتشه – إلى صياغة أفكاره الفلسفية كلها، بطريقة رمزية شعرية وحسية أيضاً.

في المبحث الثاني من الفصل نفسه، عرضنا للعلاقة المشتركة بين مبادئ كل من الفيلسوفين هيرقليطس ونيتشه، وهي ما مثلها، كل من: نظرية العود الأبدي، وبراعة الصيرورة، وإرادة الصراع والقوة، ولعب الوجود، والإنسان الأعلى

وقد تم الكشف عن أواصر هذه المبادئ بين الفيلسوفين خلاله.

في المبحث الثالث والأخير، من هذا الفصل، اتخذنا من كتاب نيتشه الأساسي "هكذا تكلم زرادشت"، تحديداً، موضوعاً رئيساً له، وقد تم خلاله بحث الموضوعات الآتية:

من هو زرادشت نيتشه؟ وهل كان ثمة تقارب من نوع ما، بين الشخصية التاريخية للنبي الفارسي، من جهة، والبطل النيتشوي الذي يستنطقه في كتابه المذكور لإعلان مبادئ فلسفته كلها، من جهة أخرى؟ ولما كنا نرى، أن شخصية "زرادشت" بطل كتاب نيتشه، في سلوكه وأقواله، يمت بصلة حميمة إلى شخصية "هيرقليطس"، أكثر من صلته بشخصية النبي "زرادشت"، افترضنا أن عنوان كتاب نيتشه "هكذا تكلم زرادشت" يمكن أن يصبح أقرب إلى حقيقة مضمونه، إذا ما جرى استبداله بعنوان آخر هو "هكذا تكلم هيرقليطس"، استناداً إلى الحضور الطاعني لشخصية هيرقليطس وأفكاره في الكتاب المذكور، ثم اختتمنا هذا المبحث الأخير، بعرض عدد من عبارات "زرادشت نيتشه" وبيان أصلها ومعانيها في شذرات هيرقليطس، دليلاً على صدق ما ذهبنا إليه.

أما عن الجديد في هذه الرسالة فيمكن عرضه على وفق السياق التالي:

١- اشرنا خلال المقدمة إلى بعض من إغراض رسالتنا، ونحسب بالقياس إلى الجهد المبذول في متنها، إننا قد أصبنا تلك الأغراض التي اشرنا إليها، حيث تم لنا - وهنا سنكشف عن إصابتنا للغرض الأول - بيان المكانة الحقيقية، لهيرقليطس، لا بوصفه مفكراً أصيلاً، تمكّن من بناء منظومة فلسفية متكاملة مهمة، من خلال مجموعة من الشذرات محدودة حسب، بل من خلال قدرة تعاليم هذه المنظومة على التأثير في عدد كبير من رموز تاريخ الفلسفة، ابتداءً، من انكساغوراس مروراً بالسفسطائيين والرواقين وصولاً إلى ماركس وأنجلز.

مثلاً تم لنا - وتحت مطلب الغرض نفسه - الانتصاف لهيرقليطس بوصفه شخصية ذات نزعة إنسانية عالية، وقد تم لنا ذلك من خلال عرضنا لمجموعة مغيّبة من عبارات قالها، وأحداث واقعية عاشها، لم يولتها الدارسون ما تستحقه من عنايتهم.

بعرضنا لنوع العلاقة الفلسفية، بين كل من هيجل ونيتشه من جهة وهيرقليطس، من جهة أخرى، كشفنا عن حقيقة هذه

الصلة ونوعها العميق، ومقدارها واسع التأثير في بناء كل من الأولين لمذهبه الفلسفي، انطلاقاً من مبادئ هيرقليطس نفسه. وبذا نكون قد حولنا ما كان شائعاً من الكلام، عن هذه العلاقة ومقدارها ونوعها، إلى واقع مدوّن، واضح الحدود والمعالم، جرى التثبيت منه، وتمت إقامة الدليل على صحته، الأمر الذي يوفر مصدراً موثقاً للدارسين في هذه المسألة مستقبلاً.

أما عن طبيعة حكمنا الشخصي عن نوع هذه العلاقة ومقدارها بين الفلاسفة الثلاثة، فبقدر تعلق الأمر بنيتشه، لا يمكننا أن نقول عنها، إلا ما سبق لـ "أويغن فنك" قوله: "إن نيتشه كانسان يرجع إلى هيراكليطس، وإن أصل فلسفته إنما هو هيراكليطس".

وقدر تعلق الأمر بهيجل، فيمكننا أن نقول مطمئنين دون خشية من مبالغة: إن فلسفة هيجل، على نحو عام، وأن نسقه المنطقي، على وجه خاص، لا يمكن أن يكتسب خصوصياته النادرة، من دون اعتماده، مبادئ فلسفة هيرقليطس، اعني اللوغوس، والجدل والصيرورة ووحدة الأضداد، سداة مدّ عليها خيوط لحمته .

٢- اتضح لنا خلال البحث، أن أفكارا مركزية في فلسفة كل من هيجل ونيتشه، لم تولّ العناية الكافية في الدرس الفلسفي العربي، ومن هنا عملنا على التأكيد على مركزيتها وأهميتها وضرورة وضعها موضع الصدارة والنواة، في أية دراسة حقيقية يراد لها أن تفهم فلسفة هيجل ونيتشه، على نحو صحيح.

من هذه الأفكار، مركزية فكرة "الله" في فلسفة هيجل، اعني أن هذه الفكرة نفسها، تؤلف موقع البداية والنهاية في فلسفة هيجل، مثلما هي المحرك الداخلي الذي يوجه أفكارها كلها، حتى وإن بدت بعض أفكار منظومته في ظاهرها غريبة أو بعيدة عن هذه الفكرة المركزية، وهو ما اختص المبحث الأول من الفصل الثاني، بالكشف عنه، تحت عنوان "واقع الانقسام ومهام استعادة الكل".

أما قدر تعلق الأمر بنيتشه، فإن فكرة الجمال، منظوراً لها على نحو انطولوجي، من جهة، و أداة مركزية لنقد عقلانية الحداثة، ومن ثم إصلاح الفلسفة من خلالها، من جهة أخرى، فهي فكرة مركزية في فكر نيتشه، ينبغي التعامل معها بعناية فائقة سبيلاً لضمان فهم فلسفته على نحو صحيح.

٣- كشفنا خلال البحث عن الأسس الفلسفية لشعرية التعبير، أي، عن الموقف العقلاني الحر المبيت، لأداء المضمون الفلسفي بطريقة رمزية شعرية تخيلية، لدى كل من هيرقليطس ونيتشه، ومعنى هذا الإجراء، وكنتيجة له، يمكن القول إن الطريقة البرهانية - المنطقية - العقلانية الصارمة، ليست هي الطريقة الوحيدة الممكنة، لإنجاز المهام الفلسفية الكبرى، إذ يمكن بلوغ وتحقيق أعظم وأدق الأغراض الفلسفية المحض، من خلال اتخاذ الأداء الشعري وسيلة لبلوغ تلك الأفكار نفسها، وهذا ما أثبتته لنا خلال الدراسة كل من شذرات هيرقليطس، وزرادشت نيتشه وعداداً آخر من مؤلفاته الأخير الأساسية.